محمد محمد حسين..

أديب غايته الحقيقة !

بقلم: د. حلمي محمد القاعود
مصر

هو باحث عن الحقيقة، ينشدها حيث كانت، ولا يخجل أن يصحح الخطأ الذي يرى نفسه قد وقع فيه دون تردد أو مواربة . فالحقيقة غايته أنى جاءت، لذا لم يجد غضاضة أن يعلن على الناس في مقدمة كتابه " حصوننا مهددة من داخلها " هذه الكلمات التي يعترف فيها بخطئه قائلاً: " كتبت هذه الصفحات حين كتبتها كي أفضح هذا النفر من المفسدين، وأنبه إلى ما انكشف لي من أهدافهم وأساليبهم التي خدعت بها أنا نفسي حيناً من الزمان مع المخدوعين، أسأل الله أن يغفر لي فيه ما سبق به اللسان والقلم، وإن مد الله في عمري رجوت أن أصلح بعض ما أفسدت مما أصبح الآن في أيدي القراء، وأكثره في بحث حصلت به على درجة (دكتور في الأدب) من جامعة القاهرة، ثم نشرته تحت اسم (الهجاء والهجاءون) .

شجاعة الدكتور (محمد محمد حسين) في تسجيل تراجعه عن آراء اكتشف أنها غير صائبة، تمثل مفتاح شخصيته في مجال البحث العلمي والحياة الإنسانية، فالرجل ما كانت تعنيه الشهرة ولا المكاسب المادية ولا المنافع الشخصية، بقدر ما تعنيه الحقيقة التي تقربه إلى ربه وتصله به، وأن يكون الرجل كذلك في زمن المنافع والمصالح والشهرة، فهو بلا ريب طراز غريب من الناس، ارتضى أن يترك جامعة القاهرة بأضوائها إلى جامعة ناشئة في زمانه (جامعة الإسكندرية)، ثم - وهو الأهم - آثر أن يسير في اتجاه معاكس لما كان يعج به عالم الفكر والأدب والثقافة في عصره، وأن يقبض على الجمر الذي يشوي جلد صاحبه، ويعزله عن صخب الحياة الثقافية بتياراتها الهادرة وأضوائها الباهرة .

ولد (محمد محمد حسين) في سوهاج عام ١٩١٢، وانتقل إلى رحمة الله تعالى عام ١٩٨٣م، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس سوهاج، وأسيوط، وحصل على الليسانس من قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) ١٩٣٧، ثم عين معيداً في السنة نفسها بكلية الآداب التي تخرج فيها، وهي السابقة الأولى - كما يقول هو- التي يعين فيها معيد في سنة تخرجه، ويكلف بالتدريس أيضاً . ثم حصل على الماجستير والدكتوراه، وانتدب للتدريس في كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٤٠، وكانت وقت ذاك فرعاً من الجامعة المصرية بالقاهرة، ثم نقل إليها بعد استقلالها عام ١٩٤٢ . تدرج الرجل في الوظائف العلمية حتى شغل وظيفة أستاذ كرسي عام ١٩٥٤، وقد أعير إلى الجامعة الليبية، وجامعة بيروت العربية . وعند بلوغه سن التقاعد عام ١٩٧٢ تعاقد مع جامعة بيروت العربية، وظل بها إلى أن تعاقد مع جامعة محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٩٧٦، التي عمل بها إلى وفاته، وكان عمره آنئذ يناهز السبعين عاماً .

دراسات عن كتاباته

أُعدّت حول كتاباته دراستا ماجستير، أولاهما في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، أعدها: عليان ابن دخيل الله الحازمي، بعنوان (محمد محمد حسين: حياته وأدبه)، والأخرى في جامعة الإسكندرية بعنوان: دراسة النص الأدبي عند محمد محمد حسين، وأعدها محمد عبد الحميد خليفة .

وقام الدكتور إبراهيم عوضين، الأستاذ بجامعة الأزهر (كلية اللغة العربية بالمنصورة) بإعداد كتاب حوله؛ يضم دراسات له ولآخرين من أمثال الأساتذة الدكاترة: محمد زكي العشماوي، صالح اليظى، يسري سلامة، طه السيد ندا، تناولت جوانب مختلفة من أدبه وآرائه، كما اهتم به الأستاذ أنور الجندي، في العديد من كتبه، ونشرت مجلة البيان التي تصدر في لندن، مقالة قصيرة عنه بقلم عبد العزيز ابن صالح العسكر .

انشغاله بالاستقلال الوطني

شغلت قضية الاستقلال الوطني والحفاظ على الشخصية الإسلامية للأمة (محمد محمد حسين) لدرجة أننا نراها مسيطرة على معظم كتاباته، فكتابه المهم " الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر " يعد بجزأيه خلاصة وتعبيراً عن الهاجس الذي سيطر على ذهنه أمام الهيمنة الاستعمارية وزحفها الخطير، لتدمير الشخصية العربية الإسلامية، وإلحاقها تبعاً وذيلاً للمدنية الغربية، ولذا فهو يلح في هذا الكتاب وفي غيره على الدعوات الهدامة التي تستهدف الدين عامة، وقواعد الإسلام خاصة، والأخلاق، واللغة العربية، كما يناقش مفاهيم التجديد ومعانيه، وآثار إلغاء الخلافة الإسلامية في الأدب والواقع، وفكرة الجامعة العربية وتشجيع الغرب لها (الإنجليز والفرنسيين خاصة)، وصراع الجامعة العربية مع الدعوات الإقليمية ودور الأزهر في حسم الصراع لصالح الوحدة العربية والإسلامية، وفي كل الأحوال ؛ فإن الرجل مشغول بالتأصيل لمعركة الاستقلال والحفاظ على الهوية منذ الثورة العرابية وما تبعها من صراعات بين الوطنيين وأتباع الغرب تجلت في نواح مختلفة على رأسها الأدب والصحافة والجامعة والأزهر، مع إبراز دور الإنجليز ومحاولاتهم المستميتة لطمس الهوية الوطنية التي تمثل تحدياً كبيراً لوجودهم وهيمنتهم، ولا ينسى أن يشير إلى الحركات الإصلاحية التي استهدفت تقوية النزعة الوطنية ودعم الاتجاهات الهادفة إلى البناء والتعمير فكرياً وحضارياً .

مؤلفاته

خلف الدكتور (محمد محمد حسين) أحد عشر مؤلفاً مطبوعاً، وأربع مخطوطات . وكتبه المطبوعة هي:

١ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (جزآن) .
٢ - الإسلام والحضارة الغربية .
٣ - أزمة العصر.
٤ - حصوننا مهددة من داخلها .
٥- الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام .
٦ -أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار.
٧ - الهجاء والهجاءون في الجاهلية .
٨ - المتنبي والقرامطة .
٩ - مقالات من الأدب واللغة .
١٠ - شرح وتعليق على ديوان الأعشى الكبير (ميمون ابن قيس) .
١١ - الروحية الحديثة دعوة هدامة .

أما المخطوطات، فهي :

١ - رواية الدموع .
٢ - الأعشى صناجة العرب .
٣ - فتح مكة .
٤ - اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر .

صراعه مع الاستشراق

لقد حمل على الاستشراق والماسونية والاستعمار حملة شعواء . دفعته أحياناً إلى القسوة على بعض المجددين من أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغاني بسبب انتمائهما إلى الماسونية التي تخدم اليهودية العالمية، أو الصهيونية كما تسمى الآن: ولم يضع في حسبانه أن الماسونية في ذلك الحين كانت تدعي أنها ذات غايات إنسانية عامة، ولم تتضح صلتها بالصهيونية إلا بعد وقت طويل من نشأتها، ثم إن تقويم محمد عبده وجمال الدين لا يتوقف على خطأ غير مقصود أو اجتهاد غير موفق هنا وهناك، فللرجلين

إيجابيات عظيمة تتضاءل إلى جانبها الأخطاء التي تنسب إليهما، ولعل لمحمد محمد حسين عذره في تشديد النكير على الرجلين وغيرهما من رجالات مصر، فقد كان اجتياح الاستعمار لمصر وللعالم الإسلامي بالسلاح أو التغريب حدثاً جللا زلزل كيان الأمة، وأصابها في الصميم، خاصة أنه استطاع أن ينشئ له قواعد فكرية وثقافية راسخة في مجالات الصحافة والأدب والتعليم والاقتصاد والسياسة، مما آذن بتبعية كاملة، وضياع كامل للهوية الوطنية، ويكشف محمد محمد حسين عن التفكير الغربي وهلعه من الوحدة الإسلامية أو التكتل الإسلامي، ويورد آراء المستشرق (جب) في هذا الصدد ومنها قوله: " إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة . فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها . فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد " .

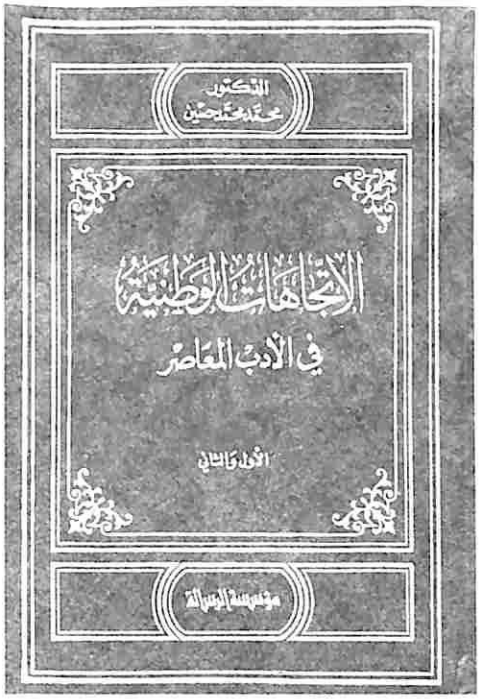

ويرتب على آراء المستشرق (جب) بأن القارئ لا يحتاج إلى ذكاء أو دهاء لكي يدرك أن الإسلام هو العدو الألد للغربيين، وأنه هو شغلهم الشاغل الذي تحاك الخطط وتدبر المكائد لحصره والتضييق عليه وطرده من الحياة كلها . ويضيف (محمد محمد حسين): على أن هذا الكتاب - الذي يحمل آراء جب وهو (إلى أين يتجه الإسلام؟) - ليس إلا واحداً من عشرات الكتب التي تذهب مذهبه في التفكير، وتتفق معه في معظم الخطوط الأساسية ولا تختلف إلا في التفاصيل .

منافحته عن اللغة العربية

لقد نافح (محمد محمد حسين) عن اللغة العربية، ودافع عنها دفاعاً مجيداً، بالدلائل الثابتة، والآراء المقنعة، بعد أن عرض لمقولات خصومها عرضاً أميناً ومخلصاً، ومن آرائه في هذا الصدد أن العربية البدويّة استطاعت أن تساير الحضارة في بغداد، ولم تنهزم أمام الفارسية أو اليونانية أو التركية، واستطاعت أن تساير في الأندلس بعد أن فرضت نفسها على البيئة الجديدة، واستطاعت أن تساير ألواناً من الحضارات في خلال ثلاثة عشر قرناً أو أكثر في بيئات متباينة أشد التباين، وصمدت أمام الغارات المدمرة وخلال الاحتلال الأجنبي الطويل . ثم إن قواعد النحو التي يزعمون أنها معقدة قد استطاعت أن تعيش أكثر من ألف سنة، وأنتج خلالها في مختلف الأمصار العربية وغير العربية ثروة من الكتب الصحيحة العربية لا تحصى . وهذه القرون العشرة أصدق شهادة لصلاحية النحو من كل ما يزعمون، ويؤيد هذه الشهادة ويقويها أن الناس كانوا منذ قرن واحد أو أكثر لا يكادون يقيمون العربية، ولا يقدر على كتابة مقال سليم اللغة إلا نفر قليل منهم، ولقد استطاعوا رغم ما لقيت العربية في أوطانها من حرب الاحتلال الجائر خلال فترة طويلة أن يجيدوها فهماً وكتابة في هذه الفترة القصيرة . وهم لم يجيدوها بتبسيط النحو ولا بتبسيط قواعد الكتابة، ولكنهم أجادوها بحفظ النحو وبحفظ قواعد الكتابة . (وهنا نذكر أن محمد عبده وجمال الدين كان لهما دورهما المشهود في الارتقاء باللغة العربية أواخر القرن التاسع عشر).

مفهوم إسلامي للأدب العربي

(محمد محمد حسين)، من أوائل الذين جاهدوا في سبيل مفهوم إسلامي أصيل للأدب العربي يعبر عن شخصيته وذاتيته ويحميه من التقليد الأعمى للأدب الغربي والتماهي فيه، وحرصه على المفهوم الإسلامي يوازي أو يرادف حرصه على الاستقلال الوطني والقومي والإسلامي، ويرى أن الإسلام نظرية في السلوك كما أنه نظرية في المعرفة، وعلى هذا الأساس

يقاس الأدباء والمفكرون من وجهة النظر الإسلامية، وقد فسر عودة طه حسين والعقاد إلى الكتابة الإسلامية بانتشار موجة التنصير الأوروبية، وهجرة اليهود إلى فلسطين، وسقوط الخلافة على يد الكماليين، وظهور جمعيات إسلامية عظيمة . ويعيب على بعض الكتاب إحساسهم بالنقص والدونية أمام الغربيين وأشياعهم من أنصار الفكر الغربي الاستعماري، وفي سبيل دفع التهم التي يلصقها الغربيون بالشريعة الإسلامية مثل الجمود والرجعية ينحرف بعض الكتاب إلى أقصى الطرف المناقض في بيان ما تنطوي عليه الشريعة من مرونة في التطبيق حتى يبلغ بهذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلاً لأي نظام وتبعاً للأهواء، وبذلك ينتهي إلى إلغاء وظيفة الشريعة، لأنه بدلاً من تقويم عوج الحياة بنصوص الشريعة يحتال على نصوص الشريعة حتى يبرر عوج الحياة المعاصرة .

وتجري دراسات المستشرقين ومؤتمراتهم نحو هذه الغاية الخطيرة، وهي تهدف إلى محاصرة (الدين) لتضييق دائرة نفوذ الشريعة وقصرها على شؤون العبادات، وإلغاء المعاملات التي يقوم عليها تنظيم المجتمع .

ومن محاذير أعمال المستشرقين مع بعض من يؤيدهم من العلماء المسلمين فكرة إعادة النظر في الدين وتطويره، ومنهم من يطلب وضع تجربة الدين والنبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث، وإخضاعها لقوانين علم النفس الحديث التي تقوم على الحدس، وتخضع للتغيير والتبديل .

وما يجري بالنسبة للشريعة والدين، يجري مثله للتعليم والتربية، فبعض الدول الأوروبية أو الغربية عموماً، تسعى إلى جمع رجال التربية والتعليم في مؤتمرات لاحتوائهم وتوجيههم وجهتها هي . ويشير إلى أن المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي لا هم له إلا سلخ الريف العربي عن دينه وخلقه وعروبته، وطبعه بالطابع الغربي إتماماً لما بذله الغرب من جهود في (فَرْنَجَة) هذه المنطقة بعد أن أعلن المستشرقون أن تأثير الفرنجة أو التغريب لم يتجاوز المدن، وهو احتيال خبيث لدخول الريف بعد أن عجز التنصير، وعجزت الأساليب الاستعمارية عن اقتحامه إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وها هو ذا يقتحم تحت ما يسمى بشعار التربية الأساسية .

وقد يظن بعض الناس أن آراء (محمد محمد حسين) دعوة إلى الانغلاق والانعزالية، وهذا ليس بصحيح، فالرجل يحرص على الاستقلال والهوية، ويرفض التبعية. وفارق كبير أن تتعامل مع الغير تعامل الند للند تأخذ ما تريد وتعطي ما يحتاج، وبين أن تأخذ ما يملى عليك وتعطي ما يفرض عليك، لذا فهو يقول " إننا إذا احتجنا إلى الاستفادة من خبرة الغرب وتفوقه في الصناعات الآلية التي كانت سبباً في مجده وسياسته، فمن المؤكد أننا في غير حاجة إلى استيراد قواعد التربية والسلوك والأخلاق التي تدل الأمارات والبوادر على أنها ستؤدي إلى تدمير حضارته والقضاء عليها قضاءً تاماً في القريب العاجل".

ملامح من شخصيته

يصعب في هذه العجالة أن نلم بمعظم ملامح شخصية (محمد محمد حسين)، فالرجل صاحب فكر وصاحب موقف، وسجّل ذلك في آلاف الصفحات، وتخرج على يديه آلاف الطلاب في مصر وليبيا ولبنان والسعودية، وكما رأينا في بداية السطور فهو رجل لا يتعصب لآرائه، بل يعدل عنها إذا ثبت له أنها غير دقيقة أو غير صحيحة، ثم إنه في كل ما كتب كان يأتي بالدليل الحاسم في قوة، كما يقول الدكتور إبراهيم عوضين، وليست بحوثه ذبذبات عاطفية تعتمد على الضجيج الخطابي، ولكنها ثمرة فكر عاقل يؤمن بالحجة، ويعتصم بالدليل، فإذا ملأ كفه من الإقناع جاء بوهج العاطفة ليحدث من التأثير البالغ ما يترك صداه في قلوب من يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله . وبالإضافة إلى تواضعه فكراً وسلوكاً، كان ينسب الفضل إلى أصحابه، ويشير إلى من ساعدوه أو أسدوا إليه جميلا، ولا يجد غضاضة أن يشير في مقدمة تحقيقه لديوان الأعشى الكبير إلى من وقفوا إلى جانبه وساعدوا على إخراج التحقيق و فيهم أصدقاء وتلاميذ، انتقل بعضهم إلى رحمة الله . ومن المفارقات أنه أدلى بآخر حوار أدبي فكري إلى الأستاذ أنور الجندي عام ١٩٨٢، ولم يتم هذا الحوار، فقد كان على موعد مع لقاء الله . رحمه الله . ■